عالمية الدعوة

محمد البيومي صديق
مدرس مساعد بالكلية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد خلق الله النوع الإنسانى وتفضل عليه بالرسالات رحمة به وتكريما له ولم يكن القصد من إرسال الرسل هو استعباد الخلق واستذلالهم بالتكاليف وإنما أرسلوا لبيان مصالح الناس وطريق سعادتهم فى الدنيا والآخرة حتى تتحقق للإنسان خلافة الله فى أرضه وحتى يقوم بحق تلك الخلافة على الوجه الذى يريده رب العزة جل جلاله ويرضاه وحتى يدرك مسئوليته التى من أجلها خلقه الله سبحانه وتعالى ويحمل أعباء تلك المسئولية فإما أن يؤدى الأمانة كاملة فيستحق بذلك الثواب والتكريم وإما أن يفرط فيها ويضيعها فتقوم عليه الحجة وينقطع عنه العذر .

قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال سبحانه (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

وقال عز من قائل : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) .

ولقد قامت جميع الرسالات السماوية على مبدأ واحد هو الإيمان بالله وإفراده بالألوهية وحده ، فهذا بارىء الكون ومبدعه لا شريك .

وهذا المبدأ هو أصل الأصول فى الأديان كلها من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون).

والإيمان شعور فطرى قوى فى نفوس البشر، يدفعهم إلى عبادة القوة ولكنهم كثيرا ما يضلون عن العبادة الواجبة، عبادة القوى القاهرة لجميع القوى. البارىء لجميع الكائنات نتيجة لبدع وانحرافات جرت على أيدى بعض الناس ولقد عبد الناس قوى كثيرة إما عبادة أصيلة أو لاتخاذ عبادتها زلفى وتقربا إلى قوة القاهر الأعلى التى يدركونها بفطرتهم.

عبدوا الأشباح والأرواح، والجمادات، والحيوانات، والنجوم والكواكب، والماء والنار، والبرق والرعد، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مثل لها أو مظهر من مظاهرها، بل عبد بعض الناس بعضا ممن تجلت فيهم قوة غير طبيعية.

وليس أبدع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله فى قصة إبراهيم عليه السلام (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت

قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

وهكذا يتدرج فى الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة فى النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يرض فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعددها وخضوعها لسلطان الظلام ، فعدل عنها والتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة هى قوة الله الذى فطر السموات والأرض وقهرهما ، (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا آتينا طائعين) .

حيث اتصل بعقله وحى الله وهداه

وهكذا يفيض الله على قلب رسله ذلك الينبوع الذى لا ينضب خيره ولا يفيض هداه وهو ذلك الينبوع الذى أفاضه الله على قلب سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا مايوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين) .

وهو الصدى العميق لذلك الهاتف الذى ناداه من السماء والأرض (إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر) (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

ولما كان التوحيد هو الغاية الأولى فى كل دين أمر الإسلام أهله (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) .

فالإيمان بالله وحده لا شريك له هو القدر المشترك بين جميع الرسالات الإلهية بغض النظر عن هؤلاء المنحرفين الذين (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) (يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .

والتوحيد أساس للتحلى بجميع الفضائل والتخلى عن جميع النقائص والرذائل وبالتوحيد تسهل كل العقبات وتذوب كل الفوارق بين الطبقات وتترحد الأمم والشعوب فمتى آمن العبد بأنه أثر للبارىء الأعظم كان بينه وبين خالقه مابين الصانع والمصنوع من الصلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعاً مابين الآثار المتعددة للمنشىء الواحد وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف إيمان بين الخالق والخلق رباطا لا ينفصم ، يستمر به العمران والإصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الإذعان لإرادة واحدة وكان بذلك وجودنا جميعا فى هذا الكون متصل المبدأ متحد الغاية .

وأما الشرائع التى جاء بها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فقد اختلفت أشكالها وصورها وإن اتحدت مناهجها وكلياتها .

فقد جاء على لسان الرسل السابقين شرائع كثيرة كل شريعة تكفل مصالح الأمة التى بعث إليها صاحب الرسالة فى زمن خاص ومتى انتهى الزمن وأهله وجاء خلق جديد احتاجوا إلى شرع يناسب عصرهم الجديد ولم يعرف أن شريعة قبل شريعة سيدنا محمد ﷺ جاءت صالحة لجميع الأزمان

وكافة الناس لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى الكمال البشرى والنضوج العقلى فكان خطابهم فى كل زمان على حسب استعدادهم .

ذلك لأن النوع الإنسانى فى بدء نشأته كان كالطفل الحديث العهد بالوجود لا يألف إلا ما يقع تحت حسه ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يرسل الله عز وجل إلى كل طائفة رسولا يصلح من شأنها ويكلفها بما يناسبها حتى جاءت شريعة الإسلام وقت إكتمال الإدراك الإنسانى وتفهم المصالح والمنافع وحيث كانت سن الاجتماع البشرى قد بلغت بالإنسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده . فجاءت تلك الشريعة صالحة لجميع الأمم كفيلة بإسعاد المجتمع العالمى فى كل عصر .

جاءهم خاتم النبيين بما يناسب كل لهم البشرى ، ليدفع الإنسان إلى الخروج من الطفولة البشرية إلى الرشد الإنسانى أى أنه جاء لتطوير المعنى الإنسانى فى الانسان ولتطوير المعنى الاجتماعى فى الإنسان .

فقد حث الإسلام على التعاون فقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وحث على البر فقال (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وحث على الإحسان فقال (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وحث على إحسان المعاشرة بين الزوجين فقال (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وحث على العدل فقال (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا) وحث على رعاية البشرية وصيانتها من الظلم والعسف فقال (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

كل هذا وغيره مما حث عليه الإسلام إنما جعلة دفعا لنمو العلاقات الاجتماعية والتطور الاجتماعي وضغطا للأنانية وكبتا للفردية وإيقاظا للمشاركة الوجدانية وتهذيبا للغرائز البشرية .

لأن رسالة الإسلام إبعاد للطفولة الإنسانية عن تصرفات الإنسان وإحلال للرشد الإنساني محل هذه الطفولة ليبقى الإنسان متميزا ولتبقى له السيادة والكرامة والخلافة في الأرض .

ولهذا نادى الإسلام بعموم رسالة محمد ﷺ للإنس والجن ونسخها لما تقدمها من الشرائع . وقال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال عز من قائل (وما أرسلناك إلا كافة الناس بشيرا ونذيرا) وقال سبحانه (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) .

وقال عز وجل (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) .

وقال في شأن الجن (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) .

وقال ﷺ : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي . كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي . وجعلت لي الأرض طيبة طهورا مسجدا ونصرت بالرعب . وأعطيت الشفاعة) .

وقال سبحانه وتعالى فى شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتكليفهم فضلا عن أممهم برسالة سيدنا محمد ﷺ (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .

قال الإمام على كرم الله وجهه فى تفسير تلك الآية : لم يبعث الله تعالى نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ﷺ لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا الآية .

وأخذ العهد والميثاق من النبيين له ﷺ مع علم الله عز وجل بأنهم لا يدركون وقته لا مانع منه حيث يكون المقصود التعظيم ورفعة الشأن والتنويه بالذكر لرسول الله ﷺ .

ومن هنا ذهب العارفون إلى أنه ﷺ هو النبى المطلق والرسول الحقيق والمشرع الاستقلالى وأن من سواه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى حكم التبعية له ﷺ .

ويؤيد ذلك قوله ﷺ (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين) ولذلك كانت شريعة الإسلام ناسخة لجميع الشرائع السابقة ، لأنها أكمل الشرائع وصاحبها خاتم النبيين وسنة الترقى تنتهى بالكمال قال تعالى (وخاتم النبيين) وقال سبحانه وتعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وقال ﷺ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ولا نبى بعدى) وقال عليه الصلاة والسلام (إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة ، من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) .

ويترتب على ختم الرسل به ﷺ أن شريعته لا تنسخ بغيرها وبطلان كل دعوى للنبوة بعده ﷺ فلا شريعة بعد الإسلام ولا نبوة بعد محمد عليه الصلاة والسلام .

وأما نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان وحكمه برفع الجزية عن أهل الكتاب وإعلانهم بأنه لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف فهذا ليس نبوة جديدة وإنما هو متبع فى ذلك لشريعة نبينا ﷺ .

والإسلام تسمية قديمة جرت على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقد قبلها الله جل شانه ونزل بها الوحى الأعلى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) والواقع أن إبراهيم عليه السلام لما اقترح هذا الاسم لم يبتدعه ابتداعا وإنما أراد أن يثبت حقيقة قديمة عريقة فى القدم هى فطرة الله التى فطر الناس عليها والتى دعا إليها النبيون من قبله . فقد كان يستحضر جواب نوح لقومه لما صدوا عنه فقال : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) كما قالها موسى عليه السلام لقومه (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال الحواريون لعيسى عليه السلام (آمنا بالله واشهد بانا مسلمون) .

وبذلك تكون هذه الأمة وريثة للأنبياء كلهم ومثله لتعاليمهم جميعاً) ففى الأزل والأبد لن تتغير طبيعة العلاقة بين العالم وربه ، وفى القديم والحديث لن تتبدل الصلة بين الناس وبارئهم العظيم .

إنها الإسلام . إنها هذا الشفاء وما يتضمنه من إخلاص وانقياد (إن الدين عند الله الإسلام) (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) والإسلام دين الفطرة — والفطرة ليست شيئا جديداً فى الإنسان إنها

قلب سليم وفكر سليم — وصلاحية المرء للحياة الحاضرة أو الحياة الأبدية لا تتم إلا بهذه السلامة — والتدين الحقيقي أساسه الأول صحة هذه الأجهزة المعنوية وبرامتها من كل تشويه (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والتعاليم التي جاء بها الإسلام تستهدف حماية الفطرة وصيانتها ولذلك أتبع الله تعالى آية الفطرة هذه بجملة من الوسائل التي تحفظها وتصونها حيث يقول : منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) .

والإسلام يقوم بداهة على الإيمان بالله والتصديق بوجوده ووحدانيته وتوحيد الاعتقاد يتبعه توحيد العمل فيجب على المسلم أن يحب ربه وأن يخلص له وأن تكون مشاعر قلبه وخلجات ضميره متجهة إليه لا تعدوه إلى كائن ما .

والإيمان بالله شيء فوق ما يتصوره كثير من الناس إنه ليس رأيا في شخص من الأشخاص أو حكما في قضية من القضايا أو اعتناقا لفلسفة من الفلسفات إنه تعامل جاد وخطير بين طرفين أحدهم هو الحي القيوم . وعلاقة تشد المرء من أخص أغواره وأبرز أحواله إلى من نشأه من عدم ورباه من ضياع وكما يلتحق العاطل بوظيفة جديدة تستغرق أوقاته وتصون حاضره ومستقبله يلتحق الإنسان بركب الإيمان فيصبح ويمسي وهو مشغول بواجبات وضعه الجديد ووسائل قيامه به ونجاحه فيه .

وقد بين الكتاب العزيز أن الناس قبل دعوة الله أشباه موتى وأن انقيادهم للرسول ﷺ مشرق فجر جديد في أنفسهم وأفكارهم وأخلاقهم ومسالكهم (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

إن الحياة الحقيقية ليست صورة اللحم والدم واكتناز العضلات وقوة الحركات فتلك حياة يشترك فيها البشر والسباع والدواب بل لعل نصيب الأنعام منها أوفر ولكن الحياة الحقيقية هى هذه الصلة التى تنشأ مع الله بعد معرفته .

هى هذا الانتظام مع أوامر الله ونواهيه بعد أن أعلن اللسان هذه البداية (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ان آمنوا بربكم فآمنا) ومع هذا الإقرار السمح يسلم المؤمن وجهه لله وحده ويتحرك فوق ظهر هذه الأرض وفق ما يطلبه مولاه .

فهو محكوم فى إمتداده وإنكماشه وحبه وبغضه وسلمه وحربه بحدود الحلال والحرام والثواب والعقاب وطلب الزلفى من ربه والوجل من طرده فمعرفة الله تعالى والإيمان به حياة بل هى الحياة والجهل بالله والكفر به موت (او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) ولذلك سمى الوحى روحا لأنه يحيى القلوب الميتة ويبصر الضمائر الضريرة والحياة التى ينشئها الإيمان تتسم بالإخلاص العميق والتجرد التام لله وحده وذلك هو تمام الإيمان وخلوصه من الشوائب .

فالمؤمن فى تعامله مع الله وتوحيده له وإدراكه لأسمائه الحسنى وصفاته المحيطة يبنى سلوكه فى الحياة على التفرغ الكامل لمولاه والإرتباط المطلق به وحده والتجاهل لما عداه .

وليس التوحيد أن نكفر بأصنام الحجارة ثم نجعل من المال صنما أو الحياة صنما أو المرأة صنما أو الحاكم صنما ثم نتوجه ببعض مشاعرنا أو كلها إلى هذه الأصنام الجديدة .

فإذا أغلب النشاط الظاهر والباطن لها وإذ أفله الله الصمد .

إنما بالملاحظة نحس أن كثيراً من الناس يبخسون الخالق أحر عواطفهم على حين يتجهون بهذه العواطف المشبوبة إلى غيره . فأى إيمان هذا ؟ ! !

وهذا هو السر فى أن البعض يزعم أنه يرجو الله مثلا فإذا فتشت فى سلوكه لم تجد لذلك الرجاء أثراً .

إن ديننا متسع الدائرة .

فهو يتناول العلاقة بين الإنسان والله — وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والحياة كلها .

أو تستطيع أن تقول: إن العلاقة بين الإنسان وربه كما يشرحها الإسلام تتعدى الحياة الداخلية للنفس الإنسانية لتؤثر فى صلة المرء بغيره من الأشياء فهو يتعامل مع هذه وتلك على هدى من ارتباطه بالله وولائه له واستمساكه بوصاياه وإخضاعه حركاته وسكناته لأمره ونهيه .

والوحى الإلهى الذى يقوم عليه هذا الدين تعرض لشتى الشئون التى تلقى الإنسان من المهد إلى اللحد وأوضح السلوك المناسب بإزائها .

وبيانا لإتساع الدائرة التى يتحرك الإيمان داخل أقطارها يقول ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون او بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان) وقد أحصى بعضهم هذه الشعب وبلغ بها أعداداً مختلفة جمعت معاقد الشريعة وأصول الأخلاق وأركان الإسلام وما ينضم إليها من آداب ونوافل — والذى أرجحه أن العدد غير مقصود وأن الشارع إنما يريد إيقاظنا إلى أن طبيعة الإيمان هى المهيمنة على النفس والمجتمع والدولة أى على توجيه الحياة الخاصة والعامة على السواء وتسييرها باسم الله وفق مراده بحيث يكون أمر الله ملحوظا فى البيت والشارع بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والناس

أجمعين فلا تفلت وجهة للمسلم من قصد الله وإعلاء كلمته ولا يفلت ميدان للحياة من الانطباع بصبغة الدين والاتساق مع مبادئه وأهدافه .

فالإيمان الصحيح لابد أن يستوعب من العناصر مايسيطر سيطرة تامة .

أولا : على النفس فى بواعثها وغاياتها .

ثانياً : على المجتمع فى معاملاته ونظمه .

ثالثاً : على الحياة فى نشاطها العمرانى والاقتصادى فيوجه لخدمة الدين وتمكين أصوله وفروعه وحياطة جوهره ومظهره .

فالإسلام يريد أن تستقيم أجهزته النفسية أولا فإذا توافرت لها صلاحيتها المنشودة بصدق اليقين وسلامة الوجهة فكل عمل تتعرض له فى الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة .

ومن هنا كان الإسلام وثيق الصلة بالأخلاق وكانت تلك الأخلاق ثمرة كل عمل دينى ولذلك يقول رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

ونجد نصوص هذا الدين كثيراً ما تمزج بين العبادة والخلق الكريم والمعاملة الحسنة والسيرة الاجتماعية الفاضلة .

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقراً ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) .

وصمانا لسلامة النفس البشرية وصفاء جوهرها من النزعات والانحرافات والدناءات واستكمالا لقيامها بوظيفتها وهى العبودية لله (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) شرع الله سبحانه وتعالى ما شرع فى الإسلام من عبادات لتعرف هذه النفس ربها معرفة يقينية وتتبع شرائعه فضلا عن أن العبادة حق الله الكبير المتعال .

والعبادة علاقة مباشرة بين الإنسان وربه لادخل فيها لأحد من الوسطاء أو الشفعاء . فإذا أردت الصلاة فلا يستطيع أن يحجبك عنه ملك ولا بشر ومن حقك أن تقف ببابه دون استصحاب كبير أو صغير . وإذا ارتكبت ذنبا فلا يستطيع أن يصدك أحد عن اللجوء إليه سبحانه لتقديم الاعتذار الواجب .

فالعبادة صلة بين الناس وربهم . وبقدر امتدادها فى أقطار النفس تكون منزلة صاحبها .

ومحور العبادات تزكية النفس وإخلاص السريرة وإشراب الطبيعة الإنسانية معنى الخضوع لله وحده والامتداد فيما وراء هذا مع الناس ومع الحياة حتى يصبح السلوك متزنا مستقيما معتدلا شعاره (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) .

وكما عنى الإسلام بعلاقة الإنسان بربه فإن مجال العلاقة بين الإنسان والإنسان كان محلا لرعايته وعنايته حيث امتدت شرائع الإسلام فى كيان المجتمع كله ولم تدع جانبا منه .

فقبل أن يتنزل الإسلام جرت بين الخلق صلات اقتصادية واجتماعية وسياسية لاحصر لها سارت على وفق ماخططته أفكارهم وأهواؤهم جميعاً

فلما أتى الوحى كانت وظيفته أن ينقى هذه المعاملات من الأدران التى لصقت بها وأن يدخل فى جوهرها أو مظهرها مايجعلها تتفق مع مبادئه ومثله بحيث تتجرد من جميع الرذائل كالغش والخداع والتغرير والغلبة والأثرة وسائر غرائز السوء ووضع مختلف التعاليم لجعل العقود والتصرفات والأساليب التى تتم بها مستقيمة مع هذين الأمرين وهما: المصلحة والعدل .

فإذا تتبعت أسلوب الاسلام فى علاجه لما يدور بين الناس من معاملات وجدته يرقى بها وينفث فيها من طبيعته السماوية فإذا هى تستحيل إلى وصايا أدنى ماتكون إلى شرائع الأخلاق ومناهج الآداب روى عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع رجلا من المسلمين فيها فنزلت (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

ومر النبى صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاما فأوحى الله إليه أن أدخل يدك فيه فأصابت يده ﷺ بللا فقال : (ما هذا يا صاحب الطعام ! قال : أصابته السماء يارسول الله . قال : (أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ ثم قال : (من غش فليس منى) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: (قال الله تعالى: أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه) .

وهكذا تكفل تلك التشريعات تكوين أمة واحدة ذات هدف واحد وغاية واحدة يتجمع الأفراد حوله ويتكتلون من أجله وتشتد روابط النفس البشرية بعد الالتقاء على الفكرة والمبدأ .

ومن المعلوم أن هذه الشرائع امتدت إلى كل شيء يمس الحياة من قريب أو بعيد .

امتدت إلى الأسرة وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض كالأزواج والزوجات والآباء والأمهات والأبناء والأقرباء ووضعت حدودا وآدابا ومعالم فى معاملة كل منهم للآخر وعلاقته به .

وامتدت إلى المجتمع كله فشرعت له الأسس والمبادىء التى تكفل توحيده وتدعم قوته وتسانده وتعاطفه وتعاونه فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص والمؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .

وامتدت تشريعات الإسلام إلى كل قطاعات الأمة . إلى القطاع السياسى وعلاقة الدولة بغيرها من الدول وما يتناول ذلك من حرب وسلم وهدنة وصلح ودعوة ورفض أو قبول الخ ،

وهكذا تمتد تشريعات الإسلام لتكفل للإنسان حقوقه وتعرفه بواجباته فى جميع القطاعات والمجالات داخليا وخارجيا خلقيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسياً حتى تتحقق الوحدة الكاملة بين أفراد الأمة وجماعاتها كما قال سبحانه وتعالى (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .

وبعد فإن قداسة القانون تعود قبل كل شيء إلى أصله وإلى علاقة الناس بهذا الأصل فإذا اعتمد القانون على أنه من عند الله جعل الناس هيمنته على أعناقهم جزءا من صلاتهم وزكاتهم .

والتشريع الذى يبلغ هذه الغاية هو الذى تستقيم به الأحوال وتستقر به الأوضاع .

من أجل ذلك كان التشريع الإسلامى مرعيا فى السر والعلانية منفذا فى الظاهر والباطن لأن تنفيذه ليس خوفا من سلطة يمكن خداعها بل خشية من عالم الغيب والشهادة .

ومن هنا كان الإسلام عالميا وكانت شريعة الإسلام ضمانا لصالح البشرية وسعادتها فى عاجلهم وآجلهم .